«زوربا» : نموذج الأدب الصحي

بقلم محيي الدين صبحي

في غمرة ادب الجنس والانعزال والرفض ، والوحدانية وما تبعثه من قلق وسأم وغثيان ، والجماهيرية وما يتلوها من فضفضة رداء الادب حتى يخرج وكأن لا شكل له .. يطلع علينا الصديق جورج طرابيشي برواية تمثل ما يمكن ان ندعوه بالادب الصحي الذي يعود فيه الانسان الى التراب والهواء والنار والفكر ، متخذا من دوافعه الخاصة اقنوما لسلوكه ، غير عابىء بحوافز المجتمع وشروطه الحضارية ، طاويا كشحا عن المعايير الاخلاقية المدرسية ، الا ما يمليه عليه قلبه الطيب وشعوره الانساني .

والرواية التي تتجلى فيها هذه القيم جميعها واكثر منها – هي رواية « زوربا اليوناني » من تأليف الروائي اليوناني المعاصر « نيكوس كازانتزاكي » : الشاعر والفيلسوف والرحالة والمناضل الاشتراكي، والمفكر الذي رأى في اليونان جسرا يصل بين الشرق والغرب ، مبتعدا بذلك عن رؤى الهيلينية ، عائدا الى مرحلة الاسطورة ، جاهدا في ان يجمع بينها وبين التاريخ الحديث . فهو يحافظ على الشعائر البدائية دون ان يغرق في المنهاج الرمزي . ويعرض تاريخ اليونان الحديث كجزء من الملحمة البشرية التي لا يملك المرء بعد النظر الى ضحاياها ، الا ان يشعر بالاسف من حماقات الجنس البشري .

ابطال الرواية عديدون : فلاحون وكهان ومثقفون وعمال ، وثمة مناضل قومي واصدقاء نتعرف عليهم من خلال رسائلهم ، وشخصيات اخرى عابرة تضيف الى السياق دسما وزخما ومفاجآت طريفة . بل ان الالة الموسيقية « السانتوري » تلعب في الرواية دورا رئيسيا لا يقل وضوحا عن كل الشخصيات التي يرسمها المؤلف بوضوح كلاسيكي . يضاف الى كل ذلك جزيرة كريت ومناظرها ، ثم بلاد حوض المتوسط عامة . غير ان البطلين الرئيسيين في هذه الرواية يونانيان ، احدهما مثقف ويطلق عليه لقب « المعلم » ، والاخر فلاح يدعى الكسيس زوربا ويحترف كل المهن : بالرجل واليد والرأس .

كان « المعلم » يعتنق البوذية ، لكنه لا يعتقد انها تجيب على كل الاسئلة . ولما كان بحثه عن الحقيقة قد ظل بلا نتيجة ، فانه قد قرر ان يعود الى الناس، فاستأجر منجما مهجورا لفحم الليغنيت في كريت ، واتخذه وسيلة ليتصل بالعمال والفلاحين والناس العاديين . انه يريد ان يغادر عالم الفكر الى عالم الحياة اليومية البسيطة التي تعترف بالجسد وتقر مستلزماته : « لم تكوني يا نفس حتى اليوم لتري سوى الظل ، وكنت تكتفين به ، اما الان فساقودك الى الجسد » . هذا ما يقوله في اول الرحلة ، الا انه اصطحب معه مؤلفا غير مكتمل عن تجربته البوذية ، لانها الحد الاقصى للتجربة الفردية في البحث عن الخلاص . وهي ابعد من المسيحية في رفضها للعالم . وهكذا فانه يريد ان يتمثل التجربة البوذية ويتجاوزها في هذه الرحلة .

وللمعلم صديقان لا يحكم على تجربتهما : احدهما مقيم في افريقيا طلبا للمال والمتعة ، والاخر اختار طريق النضال فتسلل الى القوقاز لينقذ الجالية اليونانية هناك من عدوان البلغار والاكراد بعد الحرب الاولى ، ايمانا منه بان الطريقة الوحيدة لانقاذ الذات هي النضال لانقاذ الاخرين . ولا نتعرف عليهما الا من خلال رسائلهما .

وفي الرواية امرأتان تلعبان دورا رئيسيا ، وهما السيدة هورتانس والارملة سورموليتا . فالاولى مغنية عجوز من اصل فرنسي ، طافت في مصر وتركيا واستقرت في كريت حيث افتتحت من بيتها نزلا يقيم فيه المعلم وزوربا الذي يعاشرها ما بقي لها من حياة ، ثم يدفنها ، ويجسد المؤلف فيها الشيخوخة التي لا تشبع من الحياة ، والاخرى لا نعرف عنها الا انها تملك جسدا مثيرا يبلبل افكار المعلم ، كما انها تدفع بشاب الى الانتحار فيقتلها اهل القرية ، ويجسد فيها المؤلف اثراء الانوثة

زوربا الانسان :

كان المعلم في مرفأ جزيرة كاندي ينتظر اقلاع سفينته الى كريت حين اجتمع بزوربا فألحقه بخدمته بعد ان تبين انه رجل فطري شجاع ذكي واسع القلب ، كمعظم بسطاء الارض . غير ان ثمة ناحيتين تسموان بفطرته الى افاق لا يسمو اليها الانسان العادي عادة :

اولاهما ان بساطة زوربا ليست بساطة الجاهل الغر ، بل بساطة الانسان المحنك العارف بالامور ، الذي وصل الى التوازن عن طريق القلق ، والى الاستقرار عن طريق المغامرة . لذلك فان العبر والحكم تطفح من جوانب شخصيته انى اتيتها . وحياته المليئة بالتجارب تفيض عبر تأملاته وتصرفاته بتدفق محير . ولا يدري المرء كيف يعلل ثبات الاصالة في نفس زوربا بعد ان خاض غمرات الحياة ، وخرج منها وقد ازداد تألقا وجموحا ، الا اذا رأى انها نفس عريقة متماسكة صلبة ، تنزلق الاحداث على جوانبها بعد ان تزيد جوهرها صقلا وذكاءها حدة . وهذا لا يعود الى صفات فطرية فيه بقدر ما ينتج عن موقفه من العالم. فهو لا يرى العالم سجنا ولا مرحلة لعالم اخر ، بل يعامله كأنه مزرعة توفر له اسباب الحياة والسرور . فكأن المؤلف اراد ان يصور بزوربا – ومن ورائه كل الناس البسطاء – ازالة التعارض بين الانسان والعالم ، وتصوير التفاهم بين الانسان والطبيعة . اي ان زوربا يجسد نبذ المفاهيم الغربية – وبخاصة الوجودية – والمفاهيم البوذية والمسيحية . فهو يشعر بالعالم الشعور الذي يظهر في ربيع الحضارة اليونانية والحضارة العربية ، باعتبار الانسان جزءا من العالم ، يسعى للتمتع به والسيطرة عليه دون ماليخوليا ولا شيزوفرانيا . الانسان في زوربا وحدة ينسجم فيها العقل والقلب واليد والتراب . وهو يرى الشر في العالم لكن ذلك لا يدعوه الى رفض العالم ، بل الى مكافحة الشر والتمتع بالحياة . ان الحياة طيبة ، والخير والشر يتعاقبان عليها كتعاقب الفصول ، وزوربا يأخذ من الحياة طيباتها ، ويواجه منغصاتها بشجاعة . وبذلك يعود الانسان الى الطبيعة – لا كجزء منفصل عنها ومتعال عليها – بل كاحدى الظواهر المتميزة فيها . وبذلك يكون زوربا ابن الطبيعة وسيدها ، باعتباره مندمجا فيها ومؤثرا بها .

والناحية الثانية التي تسمو بفطرة زوربا هي الشفافية التي تميزه . وهذه صفة مزيج من التلقائية والتنبؤ . ان زوربا مع كل تعلقه بالارض ليشبه ملاكا صغيرا بسبب اعتماده على الحاسة السادسة في الانسان . وليست هذه الصفة معجزة نادرة الوقوع ، يختص بها فرد دون اخر، بل تنتج عن قوة فطرته ، وغزارة تجربته ، وسرعة بداهته . ان شفافيته معيار اندماجه الروحي والجسدي مع الطبيعة . وهي تثبت قرب روح الانسان من روح الطبيعة ، دون ان يؤدي هذا الى الحديث عن الحلول او وحدانية المخلوقات . ان الحاسة السادسة لدى

زوربا تعبير عن انسانية الانسان ، او ـ بكلام اخر ـ هي الشرط الذي يجعل من الانسان مخلوقا مبتعدا عن البهيمية الحيوانية ، مقتربا من النورانية : الا يجمع المفكرون على ان الانسان مخلوق ميتافيزيكي يدفعه التوق ويثيره المجهول ؟

حسنا . ان هذه الشفافية هي التوق الزوربوي . فزوربا دائم التسآل والحيرة في اسرار الكون والحياة ، لكنه يتساءل بكيانه وليس بعقله فقط . ان اسئلته لا تنفصل عن حرارة الجسد ورائحة الارض وملوحة الدم ، لذلك كان منطقه يقع بين منطقة العقل الباردة وتجريدات اللاهوت المصمتة وجماح الغرائز المظلمة . ان افعال زوربا وافكاره ومشاعره تفيض من وجوده فيضا حيويا بالمفهوم البرغسوني لهذا الاصطلاح ، وليس بالمفهوم الارسطوي .

وعلى كل الاحوال ، فاننا اذا رجعنا الى شهادة المعلم الذي عاشره، فرام يقول عنه :

« ان هذا الرجل لم يذهب الى مدرسة ، ولم يتبلبل عقله . لقد رأى جميع الالوان ، وانفتحت نفسه ، واتسع قلبه ، دون ان يفقد شجاعته البدائية . ان جميع المشكل المعقدة التي تبدو لنا بلا حل ، يحسمها بضربة واحدة من السيف، مثل مواطنه اسكندر المكدوني الكبير. ومن العسير عليه ان يسقط على جانبه لانه يستند باجمعه ـ من القدمين حتى الرأس ـ الى الارض كالثعبان . اما نحن المثقفين فلسنا الا طيورا طائشة في الفضاء .

« ان زوربا ، لو عاش في عصور بدائية وخلاقة لكان رئيس قبيلة، ولمشى في المقدمة يشق الدرب بفأسه ، او لكان شاعرا مشهورا من شعراء التروبادور يزور القصور ، ولتعلق كل العالم بشفتيه الغليظتين ... اما في عصرنا الجاحد فيجول جائعا حول البساتين المسورة ، كذئب ، او بالاحرى يسقط الى حد انه يصبح مهرجا لكاتب رديء .

« كنت انظر الى زوربا على ضوء القمر الشاحب ، واعجب بجسده وروحه كيف يشكلان كلا واحدا منسجما ، واعجب لتلك الاشياء كالنساء والخبز والماء واللحم والنوم ـ كيف تتحد بفرح مع جسده وتتحول الى زوربا . انني لم ار في حياتي مثل هذا التفاهم بين الانسان والكون .

« انني حين فكرت بزوربا بقيت مترددا مليا ، ولم ادر ان كان علي ان اغضب او اضحك او اعجب بهذا الانسان البدائي الذي يبلغ الجوهر عن طريق تحطيم المنطق والاخلاق والصدق ..وهي قشرة الحياة . انه يفتقر الى جميع الفضائل الصغيرة مهما كانت مفيدة ، ولم يبق لديه الا فضيلة واحدة عسيرة صعبة خطرة ، تدفعه بشكل لا يقاوم نحو الحد الاقصى ، نحو الهاوية .

« ان هذا العامل الجاهل ليحطم في فورته اللجوج ، الريشة عندما يكتب . انه كأولئك الرجال الذين كانوا اول من نزعوا عن اجسادهم جلد القرود . او انه كالفلاسفة الكبار تسيطر عليه المشكلات الرئيسية ، فيراها كانها ضرورات عاجلة وفورية . انه شبيه بالطفل ، يرى الاشياء دوما لاول مرة . انه يندهش باستمرار ويسأل . كل شيء يبدو له معجزا . وكل صباح ، عندما يفتح عينيه ويرى البحر والاشجار والصخور والطيور ، يقف فاغر الفم . انه يصيح : « ما هذه المعجزة ؟ ما هذه الاسرار التي تدعى شجرة، بحر، صخرة ، طائر ؟ » .

وهذا الرجل الذي يقابل العالم بدهشة من يراه لاول مرة ، يتصرف دائما بسلوك من يواجه موته . لهذا نراه قليل الصبر ، لجوجا، ذا مقدرة على استيعاب الاشياء ونسيانها بسرعة ، لذلك يتصرف بعفوية وصدق ، مبتعدا عن هموم الابدية والصيغ الجاهزة للاخلاق والدين وكل الافكار الجامدة التي تسعى لتحديد الانسان .

« انا ؟ انني سندباد بحري . ليس لانني جبت العالم . وانما لانني سرقت وقتلت وكذبت ونمت مع مجموعة من النساء ، وانتهكت كل الوصايا . كم وصية هناك ؟ عشر ! اه. اود لو كان هناك مائة ، كي انتهكها جميعها . ومع ذلك لو ان الله موجود لما خفت مطلقا ان امثل امامه حين يجيء اليوم الموعود ! » .

فهو سندباد لانه جاب آفاق الحياة . وهو لا ينتهك الوصايا بدافع

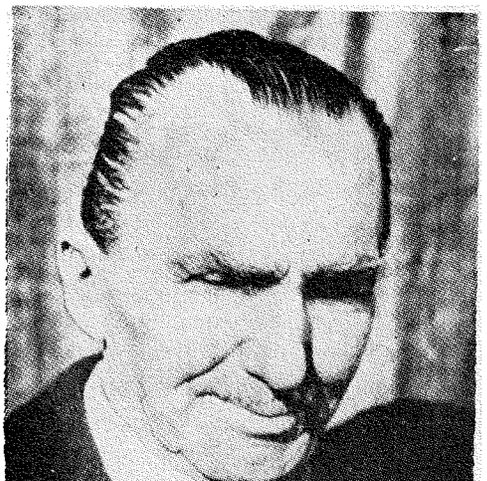

نيكوس كازانتزاكي

التمرد ، بل بدافع الشوق لان يعرف ما وراءها بشجاعة الباحث المقتحم، وليس بانفجار الخانع الذي يتمرد . ومع ذلك فكيف يوفق زوربا في ضميره بين انتهاك الوصايا والجرأة على تقديم حسابه الى خالقه ؟ اعتقد اننا اذا توصلنا إلى فهم اطروحة زوربا في الاخلاق تبين لنا تبريره لذاته امام نفسه وامام الله .

لا ريب ان زوربا قد بدأ حياته حين وعى التناقض بين القيود الاجتماعية وطبيعته الفياضة . لنستمع اليه يتحدث عن زواجه :

« في البيت ، المتاعب والاطفال والمرأة : ماذا سنأكل؟ ماذا سنلبس؟ ما الذي سنصير اليه ؟ يا للجحيم ! كلا . كلا . يجب أن تكون متفرغا لعزف السانتوري . يجب ان تكون صافيا . »

و « السانتوري » آلة موسيقية وترية ، يعبر بها زوربا عن نفسه ـ بالاضافة الى الكلام والرقص .ويقول المعلم عن ذلك :

« أحيانا ، يعزف لحنا وحشيا فتحس بانك تختنق، لانك تفهم فجأة ان الحياة تافهة بائسة وغير لائقة بالانسان . واحيانا يعزف لحنا مؤلما فتحس بان الحياة تمر وتنساب كما ينساب الرمل من بين الاصابع ، وبأن الطمأنينة لا وجود لها . »

واذا كانت قصته مع البيت قد انتهت ، فان قصته مع النساء لم تنته :

« ـ ان الاتحادات الشرعية ليس لها طعم.انه طعام بدون بهار . عم احدثك ؟ عن انه ليست هناك اية لذة في التقبيل عندما يكون القديسون محدقين بك خلال أيقوناتهم ، مانحين لك البركة ! اننا في قريتنا نقول « ليس للحم طعم الا اذا كان مسروقا . » اما امرأتك فهي ليست لحما مسروقا . والاتحادات غير الشريفة ! كيف تريدني ان اتذكرها الان ؟ هل تمسك الديكة دفاتر حسابات ؟ ومع ذلك عندما كنت شابا، كنت معتادا على اخذ خصلة شعر من كل امرأة تنام معي .. ولكثرة ما جمعت حشوت منها وسادة . ثم بعد قليل من الزمان اخذت بالاثنتان فقرفت منها واحرقتها . »

ان زوربا يتحرر باستمرار . وها هو يتحرر من الشهوة ، لا باماتتها والاعراض عنها ، بل باشباعها تماما . وهذا الاشباع هو الذي يجعل من حياته نموذجا للتفاهم مع الطبيعة : فهو لا يقاوم غرائزه بل يسايرها . لنستمع اليه وهو يروي لنا عن ميول نفسه وكيف يعاملها :

« ـ انا ، عندما ارغب في شيء ما آكل منه حتى التقزز كي اتخلص منه ولا افكر به مطلقا ، او افكر به باشمئزاز . فعندما كنت طفلا كنت مجنونا بالكرز ، ولم اكن اشبع منه لقلة ما احصل عليه . وذات يوم

غضبت او بلاحرى خجلت . لقد احسست بان الكرز يفعل بي ما يشاء ، وبأن هذا يجعلني مضحكا . فماذا فعلت ؟ اختلست من جيوب ابي « مجيدية » فضة ، وفي الصباح اشتريت سلة كرز وجلست في حفرة واخذت بالاكل . واكلت واكلت حتى انتفخت بطني ، وبعد فترة اخذت اتوجع وتقيأت . ومنذ ذلك الحين انتهت قصة الكرز . وفيما بعد فعلت الشيء نفسه مع الخمر والتبغ ، انني لا ازال ادخن واشرب. لكن عندما اريد ان اكف ،اكف . ان الرغبة لم تعد مسيطرة علي . »

ان هذه الطريقة المثلى في معاملة الميول تؤدي الى تحرر صاحبها منها . والحرية « هي ان تهوى شيئا ما ، كان تجمع قطع الذهب .وفجأة تنقلب على هواك وتلقي بكنزك في الهواء . ان تتحرر من هوى كي تخضع لهوى اخر اكثر نبلا منه » .

بالطبع ، ان رجلا مكتمل الرجولة مثل زوربا لن يقصر نشاطه على تلبية مطاليب حياته الخاصة فقط . وقد شارك زوربا في الحياة العامة، فانخرط في كفاح اليونان للتحرر من الحكم العثماني :

« ــ لقد رغبت في الوطن فاكلت منه حتى الشبع . وتقيأت ، وتخلصت منه ...

« لقد قمت انا ، من اجل الوطن ، بامور يقشعر لها شعر رأسك، ايها الرئيس . لقد ذبحت وسرقت واحرقت قرى واغتصبت نساء ، وافنيت اسرا . لماذا ؟ بحجة انهم بلغار واتراك . غالبا ما كنت اقول لنفسي وانا اشتمها : اف. اذهب الى الجحيم ايها النذل ! اما الان فاقول لنفسي : هذا رجل شجاع ، وذاك شخص قذر . قد يكون بلغاريا او تركيا ، انني لا اميز بينهما . هل هو طيب ؟ هل هو سيىء ؟ هذا كل ما اطلبه اليوم. وحتى هذا يبدو لي انني سأبدأ بعدم المطالبة به الان بعدما هرمت ، سواء أكانوا طيبين ام اشرارا ، فانني ارثي لهم جميعا . »

لقد تجاوز زوربا مفهوم الوطن بالنضال في سبيله . وتحرر منه، بعد ان رآه تحرر . وقد تدرج من العاطفة القومية الى الموقف الاخلاقي، ثم توصل الى موقف انساني بقلب يتسع للناس كلهم ، ويشملهم بالرثاء . لقد زوربا احق الناس بالرثاء للانسان . لانه بعد كل هذه التجارب التي حررته من اوهام التعصب ، لم يجد امامه الا مخلوقا ضعيفا شرها . ان رثاءه لم ينتج عن تأمل فكري مجرد ، بل كان حصيلة عمر امضاه في الكفاح من اجل حياته وحياة الوطن . فماذا وجد في الانسان ؟ :

الانسان حيوان مفترس يأكل البشر ! انه يأكل ايضا خرافا ودجاجا وخنازير ، لكنه اذا لم يأكل لحم انسان ، فانه لا يشبع .

« الانسان بهيمة . اذا كنت سيئا معه احترمك وخافك ، واذا كنت طيبا فقأ عينيك . »

ولا ريب في ان مخلوقا له مثل هذه الصفات ، لهو مخلوق جدير بالرثاء حقا ، وخاصة من رجل عاش مع اللحم والدم ، يحارب ويقتل ويحب ويحل كل المشاكل التي يطرحها الضمير والمجتمع دونما رجوع الى التراث الذي تراكم بفضل المفكرين المسمرين على مقاعدهم .

ان زوربا برهان على ان كل انسان يحمل في نفسه مشكلات الفكر والضمير الانسانيين ، كما انه برهان على ان حياة الانسان تحمل في ثناياها حلولا لهذه المشكلات .

وبعد .. فهل يجد رجل هذا شأنه ، تبريرا لنفسه امام الله ؟ ان هذا امر محير. ولكن في العالم الزوربي الها زوربيا « يجلس مرتاحا فوق جلود خراف لدنة ، وكوخه في السماء . وهو يمسك باسفنجة مليئة ، وكأنها غيمة من المطر . وعندما تأتي روح من الارواح مرتجفة عارية ، لان المسكينة اضاعت جسدها ، ينظر اليها الله فيتظاهر بالغضب وهو يخفي ضحكته ، ويصيح بها « تعالي هنا ، ايتها اللعينة » .

ويبدأ الاستجواب ، وتلقي الروح بنفسها على قدمي الله وهي تنشج وتصيح : « الرحمة ! سامحني ! » وتبدأ بتعداد خطاياها .ويتملك الضجر الاله ويتثاءب ، ويصرخ بها : « اسكتي فقد صدعت رأسي . » وبلمحة بصر ، يمسح بالاسفنجة كل خطاياها . ويقول لها : « هيا عني. اغربي الى الفردوس . »

ان الرب يتظاهر بالغضب ، وهو يخفي ضحكته . الضحكة التي تعاجل من يعرف بواطن الامور ، ويدرك ان الحياة عبث وان جماح الانسان مهما بلغ فلن يتجاوز حدا مرسوما له من قبل . وان لعبة الحياة لا تستحق كل هذا الجهد .ولا ريب في ان زوربا يطمح الى العفو ، في حمى رب له مثل هذا التسامح والادراك .

هذه هي شخصية زوربا : رثاء للبشر ، تحرر من الاوهام ، شجاعة وفطرة حية ، تعاطف مع الكون وتفاهم مع الطبيعة ، يجعلان معتقداته تتلاءم مع تلقائية الحياة .

« لقد كان الكون بالنسبة لزوربا ، كما كان بالنسبة لاوائل البشر، رؤية ثقيلة وكثيفة : فالنجوم تنساب عليه ، والبحر يتكسر على صدغيه، وهو يعيش دون تدخل العقل المشوه ، الارض والماء والحيوان والله .»

وهو ، مع ادراكه للشرط الانساني وتصوره لقسوة البشر وحمقهم، يتصرف بوحي الفطرة الخيرة في قلبه الكبير : « ان الاله الرحيم، لا تستطيع طبقات السماء السبع وطبقات الارض السبع ان تسعه . لكن قلب الانسان يسعه . اذن ، احذر ان تجرح ذات يوم قلب الانسان .».

ورجل يتصرف بهذا الحب وهذا الفهم ،جدير بان يحصل على رحمة الله ، وان خرج على وصاياه . لان الوصايا انما وضعت في الاصل لكي ينتهكون حرمة القلب البشري . اما زوربا فقد فعل ما فعل وهو مكره على ذلك . ان قسوة الشرط الانساني تجبر المرء على القيام بافعال ،قد لا يرضى بها ضميره ، ولكن تقتضيها الرجولة والظروف غير الانسانية.

الباحث عن الحقيقة :

اما المعلم اليوناني الذي تثقف في اوروبا وادمن المطالعة حتى لقبه صديقه المحارب بلقب « الفأر قارض الورق » ، فهو يعتنق البوذية، ويؤمن ان الاشياء انما توجد في عالم الفكر المجرد ، وليس في عالم الطبيعة الشاسع . وهو يؤمن ان الخير والشر لا ينفصلان ، وان من العبث القيام باي مجهود لاقتلاع الشر . وترى البوذية ان بامكان النفس ان تكتشف عظمة الحياة حينما يسبر المرء اغوار ذاته، ويستقصي طبيعته، فيكتشف ان كل شيء يعمل من تلقاء ذاته ، وان كل مخلوق وكل تجربة هي جزء من الطبيعة ، وليس ثمة حاجة لتبرير شيء او تبديله. وحين يصل المرء الى مرحلة الاندماج بالكون والتحرر من الرغبات ، يصل الى مرحلة النيرفانا والخلود الابدي :

« شقي من ليس في داخله منبع السعادة ! شقي من لا يحس ان هذه الحياة والحياة الاخرى ، واحدة.»

لقد استحوذت تعاليم بوذا على المعلم ، وبدلا من ان يشعر بالخلاص ، شعر بالشلل . ولم يجد طريقا للشفاء سوى بالعودة الى الناس ، فلقد تلاشت عواطفه الى حد انه وصف الشفقة التي شعر بها بانها « باردة ، كاستنتاج قياسي ميتافيزيقي . ».

وقد حدد المعلم للرحلة هدفين :

« ان اهرب من بوذا ، واتخلص بالكلمات من كل همومي الميتافيزيقية ، واحرر روحي من قلق غير مجد .

« ثم ان اقيم احتكاكا عميقا ومباشرا مع الناس » .

فلما تعرف بزوربا اكتفى به دون بقية الناس ، وكرس وقته وماله للبقاء معه واستيعاب تجربته الدموية مع الحياة . وقد أخذ المعلم من زوربا بمنطقه الفياض وتحديداته التجريبية وروحه الجامحة وذهنه المتوثب ، فقارن على الفور نفسه به فوجد انه الجانب الخاسر :

« كنت ــ وانا بمفردي قرب النار المطفأة ــ ازن كلمات زوربا الغنية بالمعنى والتي تفوح منها رائحة ارض حارة ، وكأنها تصعد من اعمق احشائه وهي لا تزال تحتفظ بالحرارة الانسانية . اما كلماتي فكانت من ورق . تنزل من رأسي تكاد لا تلطخها نقطة دم واحدة . ولو كانت لها قيمة فانما هي مدينة بها لنقطة الدم هذه بالذات . »

وقصة المعلم مع زوربا ، هي بالضبط قصة عملية نقل الدم الى

الفكر ، وبعث الحرارة في جدران التأمل . فكيف جرت هذه القصة ؟ وكيف التقى الفكر مع الجسد،والانسان مع الطبيعة ، هذا اللقاء الفريد؟

حين وصل المعلم الى الجزيرة كان مستسلما لبوذا ، بالرغم من عدم قناعته به . ان البحر وعذوبة الخريف والجزر المفرقة بالنور والرمل والوحدة الحزينة .. امور مغرية بمناجاة العزلة . ويبدو ان تراث بوذا غني بها . فعندما وصل الى كريت كان يردد :

« متى انزوي اخيرا ، وحيدا ، فريدا ، دون رفاق ، دون فرح او حزن ، لا يصحبني سوى اليقين المقدس بان كل شيء ليس الا حلما ؟ متى اعتزل فرحا مع اسمالي في الجبل دون شهوات ؟ متى اختلي ،بعد ان اتبين ان جسدي ليس الا مرضاوجريمة وشيخوخة وموتا ، حرا دون خوف ، مليئا بالفرح ؟ متى ؟ متى ؟ »

وكنتيجة لهذه الافكار ، تخف حماسة المعلم للحياة، وتتقلص قابليته جاه اسبابها من طعام وشراب ولذة . لذلك يكاد يتهرب من الطعام حين يدعوه اليه زوربا في البداية : « انني احتقر ملاذ الجسد منذ سنوات. ولو كان مناسبا لاكلت في الخفاء . وكانني ارتكب عملا مخجلا » .

بل ان المعلم في هذه الفترة كان يصل الى حالات اثيرية شبيهة بالنيرفانا :

« وتتبعت بعيني الدخان الذي كان يلتف وينتشر في نور الشفق العاتم ، ثم ينقشع وكانت روحي تندمج بهذا الدخان وتتلاشى في دوائر زرق . ومضى زمن طويل ، كنت احس فيه ـ دون تدخل المنطق وبيقين لا يوصف ـ باصل العالم وتفتحه وزواله ، كانني غرقت في بوذا من جديد ، انما دون كلمات خادعة ودون العاب الفكر البهلوانية الوقحة . ان هذا الدخان هو خلاصة تعاليمه ، وهذه الدوائر المتلاشية هي الحياة التي تؤدي الى النيرفانا الزرقاء ، بهدوء واطمئنان وسعادة . لم اكن افكر في شيء ، ولا ابحث عن شيء ، ولا اشك في شيء . كنت اعيش في اليقين ».

وعلى ذلك فالبوذية ليست فكرا وانما هي « حال » ـ بالمعنى الصوفي ـ كان يتلبس المعلم فيلقيه مشلولا شاردا سعيدا . لكنه حين يترك هذه الحالة يعود الى السخط والتمرد على بوذا . ذلك ان المعلم لم تمت فيه مطلقا رغباته ولا تطلعاته . فهو ليس مقتنعا بان الشلل طريق الخلاص ، كما انه لم يتيقن من اية نتيجة اوصلته اليها تجربته ، وقد جاء زوربا فاشعره بعجز الثقافة عن اختبار سبل الحياة ، وقال له « لا تغضب ايها الرئيس ، فلن تخرج بنتيجة ». وفي مرات اخرى يقول له هازئا : « لماذا لا تحرق هذه الكتب ؟ انك شاب وشجاع ، يمكن ان يخرج منك شيء مفيد !!». ان المعلم لا يملك اجوبة عن سر الحياة والموت والجمال ، كما ان المعرفة تبسط امامنا السبل لكنها لا تساعدنا على اختيار احدها . وتجاه هذا العجز المطلق، تتبدى شخصية زوربا كنموذج للحركة الدائمة والفعل المطلق ، فلا تشله المعرفة ولا يحيره الجهل . لقد وهبته الطبيعة امكانيات معينة ، فاستعملها الى اقصى حدودها دون ان ينتظر ارشاد الثقافة له في كيفية اكتشاف المواهب وتنميتها واستعمالها . وهذا الاقدام هو ما كان ينقص المعلم .

وقد برهن زوربا على انه لا يقصر اهتمامه في سلوكه على شؤون الجسد ، بل اتضح للمعلم ان لشؤون الفكر والروح دورا هاما عند زوربا . قال زوربا شارحا نظريته في الطاقة :

« قل لي ماذا تفعل بماذا تأكل اقل لك من انت . هناك من يحولون هذا الى شحم وقذارات،واخرون الى مزاج وعمل طيب، وغيرهم الى اله.»

وبذلك تم غرس الروح في الجسد ، على شكل عملي ومعقول . ويقول المعلم :

« واخيرا فهمت ان الاكل ايضا عملية روحية ، وان اللحم والخبز والخمر ، هي المواد الاولية التي تصنع منها الروح . »

وبالتدريج ، يتسع نطاق نقد زوربا للمعلم ،وتراجع المعلم امام هذا السيل الجارف من الحقائق . ان البحث عن المعرفة ، من خلال الكتب، لم يقنع المعلم ، لكن زوربا يصل الى ابعد من ذلك :

ـ ما الذي يمكن ان تقوله انت ؟ ان سيادتك ، كما افهم ، لم يجع قط ، ولم يقتل قط ، ولم يسرق قط ، ولم ينم مع نساء الاخرين قط. ما الذي يمكن ان تعرفه عن العالم اذن؟ (وتمتم باحتقار واضح :) ـ عقل بريء وجسد لم يعرف الشمس .

يقول المعلم : ـ واحسست بالخجل من يدي الدقيقتين ، ومن وجهي الشاحب وحياتي التي لم تلطخ بالدم والوحل .

ان استنكار البراءة وسلبية موقفه من نفسه ، هما ادانة تامة لحياته السابقة ، لكنه مرتبط بها وعاجز عن تغييرها :

« لو استطيع ان آخذ اسفنجة وامحو كل ما تعلمته ، كل ما رأيته وسمعته ، ثم ادخل الى مدرسة زوربا وابدأ بالابجدية الكبيرة الحقيقية! كم ستكون الطريق التي ساسلكها مختلفة ! سادرب حواسي الخمس ، جلدي كله كي يتمتع ويفهم . ساتعلم الرقص والقتال والسباحة وركوب الخيل وسواقة السيارة واطلاق البندقية . ساملأ روحي بالجسد وجسدي بالروح . ساوفق في نفسي اخيرا بين هذين العدوين الابديين . »

لقد باع المعلم روحه لزوربا . وانقلب العامي زوربا معلما والمعلم المثقف عاميا . وقد تدربت حواس المعلم على التفتح في مدرسة زوربا، وان كانت روحه ما تزال أسيرة الرعب والشلل . وذات يوم يكون المعلم واقفا في منجم الليغنيت فيحس زوربا بان النفق على وشك الانهيار ـ فينذر الموجودين فيهربون . وعندها يدرك المعلم ان الحياة قصيرة وان الموت قريب ، وان فرصة المرء لن تعود.

ان ملامسة الموت وضعت المعلم نهائيا على الطريق الصحيح . لقد ادرك سخافة ان يعيش المرء من وهم الفناء في فناء . وادرك ان الفرق بين الحياة والموت اكبر واثمن من أن يتجاوزه انسان . فاذا كنت حيا فيجب ان تعيش حياتك وان تمارس اسباب الحياة . ان المعلم يستعيد حواسه ، بل ويمارس السباحة . لكن اعمق غرائز الحياة ـ غريزة الجنس ـ ما زالت دفينة غافية في نفسه . ففي حين نزل المعلم وزوربا في فندق السيدة هورتانس ،ويصفها المعلم بانها :

« امرأة قصيرة القامة ، بدينة ، بهت لون شعرها واصبح بلون الكتان . وكان ثمة خال تتدلى منه شعرات اشبه بوبر الخنزير ، يزين ذقنها . وكانت تضع على رقبتها وشاحا مخمليا احمر ، وخداها الذابلان مطليان بمسحوق بنفسجي .. وكانت رائحة المسحوقات والصابون الرخيص تفوح منها . »

لكن زوربا يقول للمعلم :

ـ قل ايها الرئيس كيف تتبختر العاهرة : بلاف ! بلاف ! كتلك النعجات ذات الاليات المليئة بالدهن . ان الدجاجات العجوز تصنع المرق الطيب .

غير ان زوربا لم يشتغل بهذه المغنية السبعينية التي طافت شواطىء الاسكندرية وبيروت والقسطنطينية ، لانه لم يكن يرى امامه هذه العجوز المحنطة ، بل « كل الجنس الانثوي » . لذلك فان الملامح الفردية تمحي ازاء مثل هذه النظرة ،وينتصب وراء الفضون والمساحيق وجه افروديت صارما مقدسا مليئا بالاسرار . وزوربا يعرف عنها كل شيء ، لكنه يبرر معاشرته لها :

« انها عجوز، اليس كذلك ؟ ومع ذلك ففيها ما يثير . انها تعرف حيلا تفقدك الرشد .وعندما تغلق عينيك ، تتصور انك بين ذراعي فتاة في العشرين . قد تقول انها نصف ميتة ، وانها عاشت حياة صاخبة.. ماذا يعني هذا ؟ انها تنسى بسرعة ، النذلة . انها تعود لتصبح حمامة بريئة . وهي تحمر وترتجف ، كانها المرة الاولى . »

فزوربا يمجد الجنس الانثوي ، ويتجاوز في سبيله الملامح الفردية، ويغرق في اللحظة . لذلك يظل مشتهيا منتشيا. اما المعلم فكان ينظر الى كل ذلك نظرة الهزء ، الى ان شاهد ذات يوم امرأة تدعى « الارملة سورمولينا » ، فبلغ انطباعه من الدهشة بحيث قال « اي حيوان مفترس هناك ؟ انها لدئة خطرة تلتهم الرجال » . ويدفعه زوربا الى زيارتها لكن المعلم يتمنع . لقد تفتحت حواسه ، اما غرائزه فما زالت خامدة ،

ـ التتمة على الصفحة ٥٠ ـ

زوربـــا

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٨ ـ

اسيرة للرعب . وهذه العنة مألوفة لدى المثقفين ، بسبب انفصال الفكر عن العمل ، وانشغال البال بالمشكلات الذهنية ، والزهد في الحياة واسبابها . كما ان التخدير الذي يشل المعلم من افكاره البوذية، يوهمه بان في العزلة متعة وفي التعالي سموا . ويبدأ بين الاثنين حوار طويل في هذا الموضوع : فزوربا لم يتصور ان المعلم يفرط بمثل هذا الجسد في سبيل فكرة ما ، والمعلم يكابد من شهوته ويتنصل منها: ان مارا ـ روح الشر ـ هوالذي يتستر بجسد امرأة قوية الردفين . هذا هو الجسد الذي اختارته المادة المخاتلة لتقهر بهدوء الشعلة الحرة التي تتصاعد في ، وتطفئها . » . لكن زوربا لا يستسلم لهذا المنطق فيصيح غاضبا بالمعلم :

« ـ انك شاب قوي ، تأكل جيدا ، تشرب جيدا ، تتنشق هواء البحر المنعش ، نكدس قواك، وماذا تفعل بكل ذلك ؟ تنام لوحدك ! هذا يدعو الى الاسف . »

ويقول المعلم :

« كنت اعرف ان زوربا محق ، ولكنني افتقر الى الشجاعة . لقد تنكبت حياتي الدرب الصحيح ، ولم يكن احتكاكي بالبشر الا مونولوجا داخليا . لقد انحدرت وانحدرت حتى انه لو كان علي ان اختار بين ان احب امرأة او ان اقرأ كتابا جيدا عن الحب ، لاخترت الكتاب . ويتناوح الهدوء البوذي والقلق الجسدي نفس المعلم ، فيرى الحياة تارة شديدة الانسجام وانه لا يحتاج فيها الى شيء بحيث تعاوده النيرفانا، وتارة يرى انه محتاج الى كل شيء ويتطلع حوله بحرقة ولهفة . في هذه الاثناء ينهار النفق في المنجم ويدنو الموت من المعلم حتى يصبح مادة في حسابه . وبعد ان يتعاظم قلقه عشية الميلاد يغادر زوربا وهورتانس معا اخر الليل ويسير على الشاطىء منفردا وقد عاوده الهدوء:

« تلك هي السعادة الحقيقية : الا يكون لي اي مطمح وان اشتغل كعبد كأن عندي كل المطامح . ان اعيش بعيدا عن البشر فلا احتاج اليهم ، واحبهم . وفجأة اتبين ان الحياة قد اتمت في قلبي معجزتها النهائية : انها اصبحت قصة من قصص الجنيات . وتمضي الايام . كنت اتظاهر بالقوة والشجاعة ، لكنني كنت احس في اعمق اعماق قلبي انني حزين . »

انه يعلم نفسه كيف يحب عزلته وفراغ حياته وان يستعذب احزانه . وفي صباح رأس السنة يركز طاقته الفكرية في محاولة للتنبؤ باحداث السنة القادمة . لكن صوت زوربا ينقذه من هذا الجهد، ويخرج وهو يتساءل عن اول وجه سيلقاه ، فيفاجأ بالارملة تمر :

« كانت مشيتها التهادية تشبه عن حق مشية نمرة سوداء . وخيل الي ان رائحة مسك حادة تعبق في الجو . لو استطيع الهرب ! قلت ذلك لنفسي وانا اشعر ان هذا الحيوان الخانق لا يرحم ، وان النصر الوحيد تجاهه هو الهرب . »

ان الثقل والكثافة اللتين يصور بهما المرأة لتفصحان عن مدى ذعره واحساسه بالعجز . كما ان هذه العشوائية الحيوانية والظلام الحالك ، تعبران عن اختناقه امام هذه المرأة . لقد كان من الواجب عليه ان يبادرها التهنئة بالسنة الجديدة ، لكن حلقه جف ولسانه جمد في فمه .

ان التجربة الروحية البوذية فشلت في ان تدله على طريقة في السلوك ، او ان تحقق له سلام روحه القلقة . فلم يجد بدا من الرجوع الى الثقافة الاوروبية ،لعل فيها معينا لقلبه الصدي . فيترك اناشيد بوذا ويلجأ الى قصائد مالارميه فاذا بخيبة جديدة تصيب توثبه الروحي:

« لقد بدا لي كل هذا ، في ذلك اليوم وللمرة الاولى ، فقيرا بالدم، منعدم الرائحة والطعم والجوهر الانساني . مجرد كلمات زرق فارغة ، معلقة في الهواء . مجرد ماء مقطر صاف تماما . بدون جراثيم لكنه ايضا بدون مواد مغذية .. بدون حياة . »

ولما كان يبحث عن الحياة ، فانه يرفض كل ما هو خال من الحياة، ويعتبره تركيبا ذهنيا ولعبا :

« لماذا امسكت بي ، طوال تلك السنين العديدة ، هذه الاشعار ؟ الشعر الصافي ! الحياة التي اصبحت لعبة ذكية شفافة ، ليست مثقلة حتى بنقطة دم واحدة . ان العنصر البشري ثقيل بالرغبة ، كدر دنس ـ الحب والجسد والصرخة ـ فكيف يتصعد اذن الى فكرة مجردة ، وكيف يفقد ماديته في فرن الفكر العالي ويتبدد !!

« كم تبدو لي كل تلك الاشياء التي جذبتني كثيرا في الماضي ، مجرد بهلوانيات مشعوذة رفيعة ، في هذا الصباح ! هكذا ينتهي دوما قلق الانسان عند افول كل حضارة ، الى العاب مشعوذة متقنة تماما : الشعر الصافي ، الموسيقى الصافية ، الفكر الصافي . ان الانسان الاخير ـ الذي تخلص من كل وهم ومن كل ايمان ، والذي لم يعد ينتظر او يخشى شيئا ـ يرى الطين الذي هو مصنوع منه قد استحال الى فكر ، وليس للفكر مكان يلقي جذوره فيه ليمتص ويتغذى . لقد تجوف الانسان الاخير فلم يعد فيه زرع ولا قذر ولا دم . ان كل الاشياء قد اصبحت كلمات ، وكل الكلمات شعور ذات موسيقية . ان الانسان الاخير سيذهب ابعد من ذلك : انه سيجلس عند طرف وحدته ويحلل الموسيقى الى معادلات رياضية صامتة .

« ان بوذا هو الانسان الاخير . ذلك هو معناه السرمدي الرهيب. ان بوذا هو الروح الصافية التي تجوفت. ان فيه العدم،وانه هو العدم.

ان كتابة بوذا قد كفت في النهاية ، عن ان تكون لعبة ادبية.بل انها الان نضال حتى الموت ضد قوة تدمير عظمى كامنة في . انها صراع مع الـ « لا » الكبرى التي تنهش قلبي ، وبنتيجة هذا الصراع يتعلق سلام روحي . »

ان المعلم بعد ان اكتشف ـ بفضل زوربا ـ عناصر الحياة ، وعاد يبحث عنها في التراث الثقافي الاوروبي ولم يجدها ، وجد ان التجريد الاوروبي ينقطع عن الحياة ويتيه في الفراغ . اما البوذية ـ وهي مرحلة ابعد من التجريد ـ فانها تنادي قوة الرفض في الانسان ، اي انها تشجع غريزة الموت ،عن طريق اعدام الرغبات والزهد في الحياة . ان التجربتين مدانتان لانهما تجدفان ضد الحياة ، نحو آفاق الفراغ وليس من ينقذ الانسانية من تأرجحها على حافة هاويتي التجريد والزهد، سوى التفاهم مع الطبيعة ، والعودة الى طقوس الجسد ، والالتصاق بالارض . انه قد آمن بقيمة الحياة ، وهو في الطريق الى الاعتراف بمقومات الحياة من متع والام .

« ان ايقاع السنة الذي لا يتبدل ، ودولاب العالم الدائر ، واوجه الارض الاربعة التي تضيئها الشمس الواحد تلو الاخر ، والحياة التي تمضي .. كل ذلك ملأ قلبي باضطراب ثقيل . ومن جديد تردد في داخلي الانذار الرهيب بانه ليس للانسان غير هذه الحياة ، وانه لن يكون هناك حياة اخرى ، وان كل ما يمكن ان نتمتع به ، فانما سنتمتع به هنا على هذه الارض ، ولن نمنح في الابدية اية فرصة اخرى . ما الروح اذن ؟ واية علاقة خفية بينها وبين البحر والغيوم والعطور؟ لكأن الروح نفسها هي ايضا بحر وغيم وعطر .. »

وينهض من تأملاته .. الى اين يذهب ؟ انه يبحث عن الايمان ، فلا يجد امامه سوى الكنيسة ، فيدخل الى الدير ويؤخذ بالهدوء والعذوبة والشموع والراهبات والترانيم البيزنطية ، وينفرد برئيسة الدير ، فتحدثه عن الاخت « اودكسي » التي سقطت على بلاط الكنيسة وراحت ترتقص كسمكة ، وتزبد ، وتمزق ثيابها . واضافت :

« ـ انها في الخامسة والثلاثين ... ستشفى خلال عشر او خمس عشرة سنة .

فتمتمت بخوف :

ـ عشر او خمس عشرة سنة ..

ـ ما قيمة عشر او خمس عشرة سنة .. فكر بالابدية . »

لكن المعلم يلتفت ويتحسس الارض ، ويهتف : « انت وحدك موجودة يا ارض ! » . انه يخاف من الابدية . ويذكر انه وهو طفل كاد يسقط في بئر ، لكنه حين كبر سقط في ابار كثيرة ، منها « الحب » و« الامل » و « الوطن » و « بوذا » .. وها هو زوربا ينتشله من البئر الاخيرة، فهل يقع بعد ذلك في بئر « الابدية » ؟ .. ويثب الى البحر ويسبح.

يذهبان بعد ذلك الى الدير ، فيجذبه الجو مرة اخرى : « ان نفسا صابرة وعذبة تستطيع هنا ان ترفع قامة الانسان الى الوجه الديني . ان مثل هذا المكان لا يصنع ابطالا ولا خنازير . انه يصنع بشرا . فهو يبحث عن ايمان لا يخرج الانسان عن انسانيته ، لكنه يلتقي براهب يعتقد ان الشيطان يسكنه وباخر فقد القدرة على النوم. انه يصور جوا مليئا بالعقد والحرمان ، وهنا يروي له زوربا قصته مع الكرز ، وكيف ان الانسان يتحرر من الشيء بعد ان يشبع منه . انه يغادر الدير بعد جريمة قتل ولواط ، يجعلانه يهمس : « يا للخسارة ان يكون مثل هذا التقشف ومثل هذا النبل ، دون روح . »

وهكذا فنيت التجارب الثلاث : الثقافية والدينية والتاملية . ان الكاتب في بحثه عن الايمان قد اغلق على نفسه الطريق : اشترط ان يؤمن بالحقيقة بدون قبول الابدية . انه يريد ايمانا تخصب معه الحياة فلا تنوي ولا تموت ولا تتعلق بالفراغ ولا بالابدية ، فلم يجد . وسواء اكان قد يئس ام استسلم ام شعر بالخلاص ، فانه في ليلة عيد الفصح ينام عند الارملة .

ان التفكير بالموت ، والاحساس بعذوبة الارض والهواء ورائحة اشجار البرتقال المزهرة في مقدم الربيع ، ونموذج زوربا وتعاليمه ، لم تكتف ان حررته من الابدية وردته الى الطبيعة حيث القى بنفسه في البحر ليمتزج بالماء ويستعيد حواسه ، بل فتحت غرائزه واطلقت ارادة الحياة فيه ، حتى القى بنفسه في بيت الارملة . وفي صباح اليوم التالي اكتشف لديه مشاعر جديدة :

« كان جسدي خفيفا مرتويا ، مثل حيوان يلعق نفسه وهو مستلق تحت الشمس ، بعد ان التهم فريسته . وكان فكري هو ايضا مثل جسد يستريح شبعا ، وكانه وجد حلا للمسائل المزقة التي كانت تقلقه .. حلا بسيطا للغاية .

« كان فرح الليلة الماضية ينبجس من داخلي ، ويتضاعف ويروي بغزارة التراب الذي صنعت منه . وخيل الي ، وانا مستلق مغمض العينين ، ان كياني يطقطق ويتسع . في تلك الليلة شعرت بوضوح ، وللمرة الاولى ان الروح هي ايضا جسد . قد تكون اكثر حركة واكثر شفافية واكثر حرية ، لكنها جسد. وشعرت ان الجسد هو روح متناومة قليلا ، اضنتها طرق طويلة ، وانهكها ارث ثقيل .

« واسرعت الى الشاطىء ، وغطست في البحر وجففت جسدي تحت الشمس .. وفجاة نهضت واخذت مخطوط بوذا . لقد وصلت الى نهايته . لقد رفع بوذا يده وامر العناصر الخمسة ـ الماء والهواء والتراب والنار والفكر ـ بان تنحل ».

اما المعلم ، فقد امر هذه العناصر ان تتجسد بعد ان اكتشف ان الجسد روح وان الروح جسد . انه يستطيع الان ان يعيش حياته الطبيعية بعد ان زال من ذهنه التعارض بين الروح والجسد ، والفكر والعمل ، والخير والشر ، والاله والشيطان . ما من عنصر يمكن ان يوجد الا اذا كان نقيضه الى جانبه . وكل محاولة لتصفية احدهما من الاخر ، تؤدي الى الزيف والشلل والموت .

طرائق التعبير بين الطرفين :

كيف توصل رجلان مثل المعلم وزوربا الى التفاهم ، وهما مختلفان اشد الاختلاف في المزاج والتفكير والتعبير ، مع العلم بانهما عالجا المشكلات الرئيسية في الحياة كالخير والشر ، وجود الله ، الحرية ، العبث ، الوطنية ، الدين ، وغير ذلك ؟ لعل اهم عوامل التفاهم بينهما ان الموضوعات نفسها كانت تشغل بال الرجلين ـ كل بحسب طريقته في الحياة ـ وان كليهما وصل الى نتائج متشابهة مع نتائج صديقة .

فقد خاب امل الرجلين ـ على صعيد الفكر والواقع ـ في الوصول الى تفسير لمتناقضات الحياة : فمنذ اليوم الاول يتحدث زوربا عن اشتراكه في ثورة اليونان . ويتضح من حديثه انه محير بين ان يعتبر متطلبات الحرب جرائم ، على ضوء اجراءاتها من قتل وسلب ، وبين ان يعتبرها بطولة على ضوء نتيجتها التي حررت اليونان من الحكم العثماني. ويسأل زوربا المعلم :

« انه لسر كبير ! اذن فلا بد من الجرائم والنذالات الكثيرة حتى تحل الحرية في هذا العالم ؟

ويطرح المعلم القضية على مستويين ، يفكر لنفسه : « اما ان يكون الله موجودا ، واما ان تكون الجرائم ضرورية لتحرير العالم . لكنه يقول لزوربا :

ـ كيف تنبت الزهرة وتنمو في السماد والاقذار ؟ افترض يا زوربا ان السماد هو الانسان وان الزهرة هي الحرية .

ـ ولماذا لا تنتج البذرة ازهارا في الطيبة والشرف ؟

ـ لست ادري .

ـ من يدري ؟

ـ لا احد يدري . »

ان المحادثة التي تبدأ بحيرة السائل وتختم بحيرة المسؤول هي انجح المحادثات . لان الرجلين يقفان على ارض واحدة . وفي يوم عيد الفصح ، يقتل اهل القرية الارملة انتقاما لشاب احبها وانتحر ، وبعد ايام تموت السيدة هورتانس . ويبلغ الحزن بالرجلين اشده . لكن زوربا يسأل المعلم :

« ـ هل يمكنك ان تقول لي ، ايها الرئيس ماذا تعني هذه الاشياء كلها ؟ من صنعها ؟ ولماذا صنعها ؟ وعلى الاخص : لماذا نموت ؟

فاجبت خجلا وكانني أسأل عن ابسط شيء ضروري ومع ذلك

مؤلفات سيمون دو بوفوار

ق.ل

- المثقفون ـ رواية جزآن — ترجمة جورج طرابيشي — ١٤.٠٠
- انا وسارتر والحياة — ترجمة عايدة مطرجي ادريس — ٤.٠٠
- مغامرة الانسان — ترجمة جورج طرابيشي — ١٥٠
- الوجودية وحكمة الشعوب — ترجمة جورج طرابيشي — ١٧٥
- نحو اخلاق وجودية — ترجمة جورج طرابيشي — ٢٢٥
- بريجيت باردو وآفة لوليتا — ١٥٠
- قوة الاشياء ـ جزآن — ترجمة عايدة مطرجي ادريس — ١١.٠

منشورات دار الاداب

يستحيل علي ان افسره :

ـ لست ادري يا زوربا .

ـ لست تدري ! اذن فكل تلك الكتب القذرة التي تتقراها ، ماذا تنفع ؟ واذا كانت لا تجيب على السؤال ، فماذا تقول اذن ؟

ـ انها تتحدث عن حيرة الانسان الذي لا يستطيع ان يجيب عما يسأل ، يا زوربا .

فصرخ غاضبا وهو يضرب الارض برجله :

ـ الى الشيطان بحيرتها . انا اريد أن تقول لي : من اين نأتي والى اين نذهب ؟ لا بد انك بعد هذه السنوات الطويلة التي امضيتها وانت تستهلك نفسك في الكتب ، قد عصرت الفين او ثلاثة الاف كيلو من الورق ، فاي عصير استخلصته منها ؟ »

يخيل الي في هذا الموقف ان الثقافة تقدم حسابها للرجل العادي، فاي شيء تقدم له ؟ انها لم تفعل خلال عشرة الاف عام سوى ان مددت المشكلة وقلبتها على وجوهها ثم وقفت امامها هلعة ترتجف ! فبدلا من ان يتمكن « المعلم » من اعطاء جواب ، يتحدث عن « الرعب المقدس » من العدم . ويرى ان الخضوع للضرورة الحتمية هو الطريق الانساني نحو الخلاص . وبديهي أن الحديث عن الرعب المقدس الذي ينتج من اطلالة الفكر على هوة العدم ، ليس جوابا على اسئلة زوربا والانسانية المحكومة بالموت .

مرة اخرى ، كانا يتحدثان عن اهداف الحياة ، فيذكر المعلم ان المهم للانسان ان يركز طاقاته على هدف في الحياة ، فيساله زوربا :

« ـ اي هدف ؟

« ـ لست ادري يا زوربا ! انك تسألني عن امور صعبة جدا. فكيف اشرح لك ؟

« ـ قل ذلك ببساطة فافهم .

« ـ هناك ثلاثة انواع من البشر : هناك الذين يقصرون جهودهم على انفسهم ، وهناك الذين يكرسون حياتهم لخدمة البشر ، واخيرا هناك الذين يحيون حياة الكون اجمع بما فيه من كواكب وحيوانات ، لان كل المخلوقات تخوض معركة واحدة ، هي معركة تحويل المادة الى روح .

وحك زوربا رأسه :

« ـ انني لا أفهم بسهولة ايها الرئيس ، لو كنت تستطيع ان ترقص كل هذه الافكار ، او تقولها لي كحكاية .

وعضضت على شفتي مذهولا . لو كنت استطيع ان ارقص كل هذه الافكار اليائسة ! لكنني عاجز عن ذلك ! .. ليتني استطيع الا افتح فمي الا عندما تبلغ الفكرة المجردة اعلى ذروتها : حين تصبح حكاية . لكن هذا لا يستطيعه الا شاعر كبير ، او شعب بعد عدة عصور من النضج الصامت . »

لكن زوربا يستطيع ذلك . ان الرقص والحكاية هما عماد التعبير عند زوربا . لا لان افكاره محدودة او سطحية ، بل لان الفكرة لديه تولد الانفعال ، والانفعال يعبر عنه زوربا بالحركة او بتصور حادثة . ان الفكر لا ينفصل عن العمل ، اذا كان للفكرة جذور في القلب والحياة.

والرقص في الرواية مشاهد ، يعبر فيها زوربا ، بهذه الطريقة البدائية عن احاسيسه تجاه كل موقف لا تعبر عنه الكلمات : فحين يخبر المعلم زوربا بان اكتراء المنجم كان للاتصال بالناس ، ولا يبغي منه ربحا، يشعر زوربا بانه تحرر من قيود المال فيرقص . ولا اعتقد ان بوسع الكلمات ان تعبر عن الحرية وعن الفرح بها ، مثلما يعبر الرقص حين يندفع الجسد في الهواء مقاوما لثقل المادة وجاذبية الارض .. وحين تتحرر الاعضاء فتتحرك بانسجام وليونة .

وكما ان الفن عند الفنان ليس وسيلة للتعبير عن الانفعالات فقط، بل هو وسيلة للتخلص منها ، كذلك فان الرقص عند زوربا يحقق هذا الهدف المزدوج :

« عندما مات ابني البكر ، وكان في الثالثة ، وقفت هكذا ورقصت. واسرع الاهل والاصدقاء الذين كانوا يتطلعون الي وانا ارقص امام الجثة ليوقفوني . واخذوا يصرخون : « جن وزربا ! جن زوربا ! » لكنني في تلك اللحظة ، لو لم ارقص لجننت من الالم ! » .

ويسمو الرقص عند زوربا عن حدود الانفعال ، حتى يصبح تعبيرا عن وجوده كله : حاضره وماضيه ومستقبله ، اذ يروي لنا انه حين كان في روسيا تصادق مع عامل روسي ، فروى كلاهما لصاحبه احداث ثورة وطنه رقصا :

« كل ما لم نستطع ان نقوله بفمنا قلناه بارجلنا ، بايدينا، ببطننا او بصرخات وحشية . لقد سقط البشر سقوطا سافلا جدا . يا للعار ! لقد جعلوا اجسادهم خرساء ، ولم يعودوا يتحدثون الا بالفم . لكن ماذا تريد ان يقول الفم ؟ ماذا بامكانه ان يقول ؟ »

اننا نصدق انسانا فيه مثل هذه الحيوية الجامحة ، حين يروي لنا انه حين عمل خزافا قطع ابهامه لانها كانت تزعجه :

« تسير الدولاب ويدور الطين كالمسوس ، بينما تقف انت فوقه وتقول : ساصنع جرة ، صفحة ، قنديلا وكل ما اريد ، مهما كان ! هذا ما يجعلك انسانا : الحرية ! »

هذا هو الانسان كما اراده خالقه : رغبة في التحرر والعطاء والخلق والانفلات من كل القيود . وهذا هو زوربا الانسان الذي يتحرر من جسده ، من رغباته ، من اعدائه ومن كل ما يقف في طريقه .. يتحرر لا بالانسحاب وانما بالمجابهة والتملك والشبع والاندفاع والتجاوز . ان اصبعا يقطعها صاحبها في سبيل التحرر والابداع ليست شيئا يؤسف عليه .

اما المعلم الذي كان يخوض معركة تحويل المادة الى روح ، فقد دهش اولا ، ثم اسف لانه لا يعرف ان يعبر عن نفسه لا بالحركات ولا بالاشارات . لكن عودته الى الجسد ، باستساغة الطعام ، وبالسباحة ، وبالحب ، هذه العودة التي واكبت تحرره من بوذا ، قد جعلته يتعلم الرقص من المعلم زوربا ، ويرقص.

***

لقد استأجر المعلم منجم الليغنيت ليتصل بالبشر ، لكنه عكف على اتمام كتابه عن التجربة البوذية وغرق في انفاق العقل . فاستلم زوربا العمل بنشاط وطمع ، لكن النفق تهدم ولم يخرج منه فحم كثير ، فلم ييأس زوربا بل استأجر غابة الدير واقام جسرا ليدحرج الخشب من الجبل الى الميناء ، فتهدم الجسر ايضا . وهكذا ، فان زوربا ـ رجل الطبيعة ـ لم يجد شيئا في باطن الارض ولا على سطحها ، كذلك فان المعلم ـ رجل الفكر ـ لم يجد شيئا في انفاق العقل والروح ، ولا في التراث المتراكم . فكأن المؤلف يريد ان يقول ان الجهد الانساني عبث ضائع كله ، وان القيم الاخرى الروحية والحضارية ليست الا شراكا توقع الانسان في حبائلها ، فاذا تفحصها وجدها فارغة فتخلص منها . وان حرية الروح لا تتاتى الا من السيطرة على الاشياء ثم تجاوزها الى غيرها ، وان الانسان يعيش في الوهم الذي يخلقه اكثر مما يعيش في

فندق نيو بالاس
ادارة : فتحي نوفل
وسط راقت
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف
جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريه سابقا) القاهرة
خلف سينما الكورسال بعماد الدين
ت : ٤٥٩٣٦
س ت : ٧٩٧٩١
New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo

الحاضر القائم بين يديه ، وان الحياة بالامها الصغيرة ومسراتها الصغيرة جديرة بان تعاش ، وان كل مذهب يبعد بالانسان عن فطرته وحياته الطبيعية ، مذهب باطل ، وان انفصال الفكر عن العمل وانفصال التأمل عن الحياة ليس الا شعوذة وتحنيطا ، وان من المخزي للمدنية أن تسير في طريق كبت المشاعر او اللامبالاة بها . فالانسان الحقيقي ذو الدماء الحارة والعظام المتينة ، يترك دموعا حقيقية كبيرة تنساب عندما يتألم، وحين يكون سعيدا لا يضيع فرحه بامراره في غربال الميتافيزيك،حيث يتحنط الشعور ويتغلف بالشمع دون اثارة للرعب او للغبطة او للامل.

لقد كان زوربا يعلم جيدا ان المشروع اذا ربح فسوف يحتفظ بالارباح . وكان المعلم يوقن انه اذا وصل الى ايمان يحقق السلام للروح دون ان يضيع حقوق الجسد فسوف تهدأ روحه المعذبة الحائرة . لكن المشروع فشل ، وفشل ايضا البحث عن الايمان . لقد افلس العامل والمفكر : اي افلست التجربة الانسانية باكملها . ولم يبق سوى التمتع بالحياة ، وصداقة القلب للقلب .

ان انهيار النفق والمصعد ، وموت المغنية والارملة ، والتخلص من التجربة البوذية دون احلال عقيدة اخرى محلها ، كل ذلك يعني افلاس المعلم ماديا وفكريا . ولكنه في تلك الليلة بالذات يقول لزوربا:

« ـ تعال علمني الرقص يا زوربا . لقد تبدلت حياتي .

ـ انظر الى قدمي ايها الرئيس ، انتبه .

ومد قدمه ، ومس الارض بخفة ، ومد القدم الاخرى ، واشتبكت الخطى بعنف ومرح ، ورنت الارض ، وشدني من كتفي وقال :

ـ هيا ، يا بني . كلانا معا .

واندفعنا في الرقص . »

ونكاد نسمع في جملة (هيا يا بني) وكأن الانسان القديم الذي يعرف اسرار الارض ، ينادي انسان القرن العشرين ، ويدعوه الى ترك التأمل العقيم والعودة بالجسد الى الطبيعة . وما رقص الرجلين معا الا لوحة بديعة لهذا التفاهم الصحيح بين الفكر والجسد . ولم تكن نتيجة هذا التفاهم الا حبا واستمتاعا وضحكا على هذه الحياة ، وضنا بها أن تضيع في هموم الدنيا او متاهات الفكر .

« لا يوجد شيء في الطبيعة ولا في الفكر . لقد حررتنا هذه الحقيقة .. فلنرقص . » .هذا ما توصل اليه الرجلان في النهاية . لقد اكتشف المعلم بين ثنايا الضرورة القاسية ، الحرية تلهو في احدى الزوايا :

« اي فرح يتملك الانسان عندما يسير كل شيء عكسا ، فيعرض روحه للامتحان ليرى اذا كان لها احتمال وقيمة . لكأن عدوا خفيا ـ اله او شيطان ـ يندفع ليصرعنا لكننا نظل واقفين . وفي كل مرة يقهر الانسان في معركته الخارجية،ويتنصر في داخله ، يشعر بكبرياء وفرح لا يمكن التعبير عنهما .

ويفترق الرجلان بعد ذلك ، وان ظل بينهما رسائل وشوق واعجاب.

التواصل « تلباثي » :

قلنا ان اهم ما يميز شخصية زوربا ناحيتان : اولاهما ان بساطة زوربا هي بساطة المحنك الذي وصل الى التوازن عن طريق القلق،والى الاستقرار عن طريق المغامرة ، لذلك فان العبر تطفح من جوانب شخصيته انى اتيتها . وثانيتهما هي الشفافية التي تميزه ، وهذه صفة مزيج من التلقائية والتنبؤ . فاما التلقائية فقد عرفنا ان زوربا يتصرف ويعبر كما يشعر ، اما المعلم فانه يتصرف كما يفكر ويؤمن . لكن للتنبؤ حدودا ابعد . انه اشكال مختلفة من الحدس بالواقع ، ومعرفة المستقبل ، والاتصال بالاخرين عن بعد . ان هذه الامور شائعة ومؤكدة ، والبعض يتخذون منها برهانا على وجود الروح ، اما البعض الاخر فيرون انها ذبذبات كهربائية يطلقها الدماغ والاعصاب . ومهما يكن من امر فقد استخدمها الكاتب في الرواية ، متمما بذلك عرضه لجوانب الانسان المادية والمعنوية .

تبدأ الناحية المعنوية بالظهور في شخصية زوربا على شكل فراسة.

فحين يتعرف على المعلم يقول له زوربا : « انني اجيد طبخ الحساء » . ونعلم فيما بعد ان المعلم يحب الحساء وكان هذا سببا من اسباب قبوله لزوربا . ويقول زوربا للمعلم في النهاية انه احس بذلك حين تفرس في وجه المعلم . ونشاهد زوربا يتشاءم من مرور احد الرهبان صباحا وهو ينصب المصعد ، وفعلا ينهار المصعد . وفي النهاية نرى زوربا يستيقظ مذعورا . فقد حلم انه مسافر ومعه ببغاء ، وبعد ايام نجد المغنية هورتانس تموت وتترك له ببغاءها .

اما المعلم فقد ودع صديقه المناضل الذي ذهب ليحرر اليونانيين من القوقاز بعد ان اتفقا : « اذا ما واجه أحدنا خطر الموت ، فليفكر بالاخر بالحاح كثير ،ليحذره حيثما كان » وقد عقدا هذا الاتفاق بالرغم من انهما كانا يهزءان بالفكرة . ولما كان جهد المعلم الفكري منصبا على قضايا الروح بالدرجة الاولى ، فان هذه الحوادث ليست غريبة عليه . ان تركيز قواه في الحالات البوذية ، يجعله دائما يتطلع الى الحالات الاكثر شدة مما يعاني . انه يتطلع الى بوذا حين تحرر بعد نزع سبع سنين وغمره الفرح الاعظم « فانتفخت اوردة جبينه يمنة ويسرة ،الى حد انها تبقت خارج الجلد واستحالت الى قرنين قويين ملتويين وكأنهما نابضان من الفولاذ . » . ويفكر برهبان التيبت الذين يرغمون الاثير على ان يأخذ شكل رغائبهم ، بتركيز ارادتهم عليه . « ويمسكون بكأس ماء متجمد بين راحاتهم ، وينظرون اليها ، ويركزون انفسهم ، ويرمون بقوتهم على الماء المتجمد فيغلي . ثم يعدون شايهم . » . ويشرح المعلم لزوربا هذه الحادثة بقوله: « عندما تضع زجاجة مكبرة تحت الشمس وتجمع كل الاشعة على نقطة واحدة فانها تشتعل . لماذا ؟ لان قوة الشمس لم تتوزع . وكذلك روح الانسان . اننا نقوم بالمعجزات حين نركز روحنا على شيء واحد لا غير . »

وبالمماثلة مع هذه الحوادث ، نستطيع ان نصدق المعلم حين حلم بصديقه المناضل يودعه ، فقال له المعلم :

« ـ اعطني يدك .

« ـ انني مستعجل !

« لماذا انت مستعجل ؟ اعطني يدك .

« ومد ذراعه لكنها انفصلت فجأة عن كتفه ، وجاءت مخترقة الفضاء لتمسك بيدي .

« وذعرت لهذا الاحتكاك البارد ، واطلقت صرخة ، واستيقظت منتفضا .

... كان عقلي يحاول عبثا ان يفك رموز الرسائل الغامضة التي تنجح احيانا في اختراق الجسد وبلوغ الروح . كان في اعماق كياني يقين بدائي ، اعمق من العقل ، يقين حيواني يمتلىء بالرعب ، كاليقين الذي تشعر به الحيوانات من خراف وجرذان ، قبل ان ينفجر زلزال في الارض . واستيقظت في داخلي روح البشر الاوائل كما كانت قبل ان تنفصل نهائيا عن الكون ، عندما كانت تحس بالحقيقة مباشرة ، ودون تدخل العقل المشوه . »

وبالرغم من ان عقله يكذب حدسه ويهدىء روعه ، فان رسالة تأتيه بنعي صديقه . وهكذا تصدق رسائل الروح بالرغم من اننا لا نثق بها.

ان حدس زوربا متعلق بالطبيعة ، فهو بدائي مليء بالرعب ، غض، بعيد عن تشويش العقل . كان زوربا اثناء عمله في نفق المنجم يشم المادة بثقة لا تخطىء ، ويتحد بالارض والمعول والفحم في جسد واحد . وذات مرة اصاخ بسمعه : « وفجأة وثب والصق اذنه بجدار النفق . وعلى ضوء غاز الاستصباح لمحت فمه المفتوح متشنجا . وصرخت :

ـ ما بك يا زوربا ؟

لكن في تلك اللحظة خيل الينا ان سقف النفق كله قد رجف فوقنا . وصرخ زوربا بصوت مبحوح :

ـ اهربوا ، اهربوا . »

فنحن نلاحظ من النص ان زوربا قد احس بحركة الجدار وهو يريد ان ينقض . وهذا الاحساس بنوايا الطبيعة لا يتوفر الا لمن يمتلك روح البشر الاوائل الذين كانوا يحسون بان لكل شيء روحا في الطبيعة،

فيناجيهم ويناجونه . ومن هذه النجوى بين الانسان وروح الاشياء ، علم زوربا بانهيار النفق قبيل وقوعه . وقد كان زوربا واعيا لحساسية روحه باحداث الطبيعة ، لذلك كان يقول للمعلم ، وهو يحذره من الاقتراب منه اثناء العمل : « ان التدابير التي آخذها من اجل زوربا ، ليست نفسها من اجل الاخرين » . اما حدس المعلم فانه بعيد عن الطبيعة لكنه قريب من الابدية والموضوعات التي لا يني يفكر فيها . ان روحه هائمة مع الاثير على قمم التيبت وجدران الكاتدرائيات والشمس . لذلك فانه بعد ان يسرد لنا احلامه بزوربا ، يذكر ايضا ان زوربا اصبح هاجسه في اليقظة ، اذ الحت عليه رغبة قوية في ان يكتب ذكرياته عنه « وكانت هذه الرغبة عنيفة جدا الى حد انني خفت ان ارى فيها اشارة الى ان زوربا في مكان ما على الارض ، في هذه الايام ، يحتضر . ذلك انني كنت اشعر بروحي متحدة مع روحه بقوة ، الى حد كان يبدو لي معه ان من المستحيل ان تموت واحدة منهما دون ان تهتز الاخرى وتصرخ الما . »

وفي بضعه اسابيع كانت اسطورة زوربا الذهبية قد اكتملت . فوصلت اليه رسالة من ارملة زوربا ، تذكر له فيها انه اوصى له بالسانتوري ، وتصف له لحظاته الاخيرة :

« .. وقفز من السرير ، وذهب حتى النافذة . وهناك تشبث بالفرجة ، ونظر بعيدا نحو الجبال ، وجحظ عينيه واخذ يضحك ، ثم يصهل كجواد . وهكذا ، وهو واقف ، واظافره مغروزة في النافذة اسلم الروح . » .

قنية الرواية ، او الادب الصحي .

يتبع كازانتزاكي في روايته اسلوب السرد المباشر . واذا كان الفن هو تحويل الفكر الى صور فان الكاتب اليوناني العظيم قد سار خطوة وراء هذا الهدف : لقد حول الصور الى حكايا ، والحكايا الى ايقاع . وبذلك رجع الى اصول القصص الشعبية الخالدة ، كما هي في الف ليلة وليلة ، دون ان يمنعه ذلك من ان يحمل هذه الحكايات انضج قطاف الفكر العالمي المعاصر ، على نحو ما يضمن القاص الشعبي « العبرة » في ثنايا القصة التي يرويها . كما ان الكاتب في محاولته العظيمة هذه قد حول القضايا الفكرية الى حالات معاشة ، فرد الدم الى الفكر المعاصر ، وجعل الحياة فكرا والفكر حياة ، فكأنه اراد ان يجمع الشرق والغرب في كتاب . وقد فعل .

لقد استوحى الكاتب بعض المشاهد من الاساطير (مقتل الارملة والتضحيات البشرية) وبعضها من الحياة الشعبية (ميتة المغنية هورتانس) . كما استعان بالمذهب البوذي والتراث الروحي لحضارة الشرق الاقصى ، لوصف حالات روحية ، ما كان ليقدر لها هذا الصفاء لولا تلك المصادر . كما ان نظرية وحدانية الكون قد جعلت اوصافه اكثر مادية وبالتالي فهي اكثر تأثيرا في القارىء . وقد اثبت في نهاية الكتاب حلول المشاكل التي طرحها في بدايته ، مبينا من خلال التجربة والقناعة انتقال المفكر من حال الى حال . ولكن هذا التناظر بين الحالين ـ حال الكاتب وهو محير بالمشكلة وحاله بعد ان تحرر منها ـ جعل جمالية الكتاب وكأنها مستوحاة من الفن العربي ـ الارابيسك . كما انه نقل لنا صورتي الانسان ، وجعلنا نحس بالانفراج الذي يعقب الازمة . وهذا كله يجعل الايقاع واضحا في نفس القارىء من فكرة وفكرة مضادة وحل جديد لهما . ففي بداية الكتاب ، يقرأ المعلم « حوار بوذا والراعي » بشيء من التقديس «هذا الحوار الذي كان يملأني في السنوات الاخيرة ، بالسلام والامن » :

« الراعي ـ لقد هيأت طعامي ، وحلبت نعجاتي ، ووضعت المزلاج على باب كوخي ، واشعلت ناري . وانت تستطيعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء !

بوذا ـ لا احتاج مطلقا الى الطعام او اللبن . الرياح كوخي ، وناري قد انطفأت . وانت تستطيعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء . »

ويعقب المعلم على النشيد بقوله .

« كان هذان الصوتان لا يزالان يتكلمان ، عندما اخذني النعاس . » واذن فهو مستسلم للنشيد ، غير قادر على ان يرى حدا بين مادية الراعي ـ مادي لان حياته وفكره مقتصران على الطعام والشراب ـ وبين روحانية بوذا الذي يعيش في العراء ولا يحتاج للطعام ، لانه يرى في الروح كفاء عن العالم باسره .

وفي نهاية الكتاب ، بعد ان دخل المعلم في مدرسة زوربا وتعلم ان يحذف التضاد الذي وضعه بوذا بين الروح والجسد ، وبين الفكر والعمل ... وفي صباح الليلة التالية لتعلمه الرقص ، يسير على الشاطىء شاعرا بالفرح والانتصار على القوة المدمرة لحياته ، وهي بوذا ، شاعرا بكبرياء الانسان الذي هزمته المعركة لكنها ايقظت روح المقاومة والكفاح في نفسه ، يقول :

« كنت اسير بسرعة على الشاطىء واتحدث مع العدو غير المرئي ، واصيح :

« لن تدخل الى روحي ، لن افتح لك الباب ، لن تطفىء ناري ، لن تستطيع قهري . »

لقد ارتفع ـ بنتيجة التطور الروحي ـ مع صوت الراعي المستسلم لنواميس الطبيعة وصوت بوذا المنسحب من الطبيعة الى الابدية ، صوت ثالث هو صوت الانسان المتمرد على قوانين الضرورة الغاشمة العمياء .

كان زوربا بعد موت هورتانس والارملة حين يناقش مع المعلم موضوع الموت ، ينفجر :

(ـ لا . لست انا الذي سيمد عنقه للموت كخروف ، قائلا له : « اقطع رأسي »

ويفكر المعلم :

« كنت اصغي الى زوربا حائرا . من كان ذلك الحكيم الذي حاول ان يعلم تلاميذه ان ينفذوا عن طواعية ما يأمر به القانون ؟ ان يقولوا « نعم » للضرورة ، ان يحولوا ما لا بد منه الى ارادة حرة ؟ ـ لعل

صدر حديثا :

الناس في بلادي

للشاعر صلاح عبد الصبور

طبعة جديدة من الديوان الاول لاحد زعماء مدرسة الشعر العربي الحديث واحد رواد النهضة الشعرية المعاصرة .

الثمن ٢٥٠ قرشا

منشورات دار الاداب

هذا هو الطريق الانساني الوحيد نحو الخلاص . انه يستدعي الرثاء ، لكن ليس هناك غيره .)

ان البوذية التي تؤمن ان حياة الدنيا جزء من الابدية ، ويجب ان تعاش على نسقها ، تنتهي الى الرواقية التي تؤمن بانه اذا لم يكن ما تريد فيجب ان تريد ما يكون :

« وماذا عن التمرد ، اذن ؟ قفزة الانسان الدونكيشوتية لقهر الضرورة ، لاخضاع القانون الخارجي لقانون روحه الداخلي ، لنفي كل ما هو كائن ، ولخلق عالم جديد افضل واكثر نقاء واخلاقية ، لخلقه حسب قوانين قلبه التي هي نقيض قوانين الطبيعية غير الانسانية ؟ » فهو تحت سيطرة بوذا ، يستسلم للضرورة ، ويعلق حكمه على التمرد. اما بعد ان يتحرر من بوذا فانه يتمرد على الضرورة . لقد رأى نفسه تتبدل ، وكان واعيا لهذا التبدل ، بحيث ان كل ما يجري عادة في اظلم سراديب احشائنا ، كان يجري في وضح النهار مكشوفا امام عينيه .

فهذا التناظر في الموقف الواحد من قضية الضرورة بين الاستسلام لها والتمرد عليها يجعل جمالية الرواية قريبة من الجمالية العربية . كما ان هذا التناظر يخدم الايقاع الذي جهد الكاتب جهدا شديدا في ابرازه .

ان الحياة الانسانية تعتمد على الدور . فخروج الدم من القلب وعودته اليه دور ، وتعاقب الليل والنهار دور ، وتعاقب الفصول دور. ولا بد ان كاتبا كبيرا مثل كازانتزاكي تعمد ان يربط حوادث روايته وحياة ابطاله بدورة الطبيعة لكي يربطهما بالايقاع الكوني . فهو في الخريف مستسلم لبوذا ، وفي الشتاء تتفاعل في نفسه بذور افكار زوربا ، كما تتفاعل البذور بالتربة ، وهو في الربيع متوثب يقظ كأنه عصفور او وردة . وفي الصيف تنضج افكاره ويعيش حياته الجديدة .

هذا هو الدور الاول ، اما الدور الثاني الذي ربط به الرواية فهو حياة السيد المسيح . ففي ليلة الميلاد يتكدر مزاج المعلم ويضطرب بين الحزن والفرح ، كأنه في مخاض . وفي ليلة الفصح ـ ليلة بعث المسيح يبعث جسد المعلم . ويذهب الى الارملة . والدور الثالث هو تكرار الجدل بطرح الفكرة ونقيضها وتركيبهما .

وهكذا تتجسد جمالية القصة ، ببساطة الحكاية ، وعمق المغزى ، وحرارة المعاناة ، وروعة التناظر ، وكونية الايقاع . وهو ـ بهذه المناسبة، لم يكتب كتابا صحيا من حيث مضمونه المنادي بالمزاوجة بين الفكر والطبيعة ، وانما ايضا ساهم مساهمة فعالة بانقاذ الادب العالمي من التيار الذهني الذي تردى به على ايدي الكتاب التجريديين الذين يزيفون مفهوم الادب ، عجزا منهم عن تحقيق الفيض الروحي بالصور المجسدة .

وهكذا يكون الادب الصحي عودة الى القلب البشري ، والى الحكايا الشعبية ، والى التجربة اليومية ، محتفظا بدقة الصنعة ، وجمال التناظر ، وروعة التدرج من المحسوس الى المعقول ، ومن الجزئي الى الكلي ، ومن المعلوم الى المجهول ، ملخصا تجربة الوجود الانساني بالعقل والقلب والجسد ، في اساطير وملح وحكايات بسيطة عذبة .

اما لغة جورج طرابيشي في ترجمة الكتاب ، فهي لغة جزلة متينة التركيب ، تستوحي في تركيبها معنى النص وروح السياق . وقد نجحت الترجمة في الاحتفاظ بروح الحوار في الكلام ، وبابراز الطابع الشخصي في الحوار . وهذه الترجمة الناجحة تشكل تطورا هاما لصالح المترجم ، اذا قارنا لغتها بلغة رواية « المثقفون » .والقول الفصل في اسلوب جورج طرابيشي ـ بعد ان كثر الجدل حوله ـ هو انه اسلوب « عملي » يخلو من الاناقة والتزويق والشعر . فهو يؤدي المعنى بتوازن ووضوح ودقة ، مع احتمال ان يكون اجمل . اما امانته في الترجمة فان ثقتنا بها مطلقة ، وهو يحرص على صحة المعنى ولو على حساب التركيب اللفظي . أن العربية قد كسبت في جورج مترجما يجيد الاختيار ، ويمحص في النقل ، ويهتم بالتجويد .

دمشق

محيي الدين صبحي

صدر حديثا :

الإسلام تجاه تحدّيات الحياة العصرية

بقلم الدكتور حسن صعب

كتاب هام يضم عدة ابحاث قيمة تنبع من معين واحد ، هو معين الايمان بالاسلام ، والاعتقاد بقدرته على ان يواجه تحديات الحياة العصرية بالروح الخلاقة نفسها التي جابه بها مختلف التحديات منذ نشأته

منشورات دار الاداب